جامعة القاهرة
كلية دار العلوم
قسم الفلسفة الإسلامية

القونوي(ت٧٢٤هـ) وآراؤه في الاعتقاد والتصوف مع تحقيق كتابه «حسن التصرف في شرح التعرف»

دراسة مقدمة لنيل درجة الماجستير

إعداد

محمد عادل مصباح العدل

إشراف

الأستاذ الدكتور/ مصطفى محمد جلالي

أستاذ الفلسفة الإسلامية بالكلية

١٤٣٧هـ-٢٠١٦م

المقدمة

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ قائد الغر الميامين المحجلين، نبينا محمد إمام الموحدين، وقدوة السالكين، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من سار على نهجه إلى يوم الدين.

أما بعد: فلا يخفى على أحدٍ أن علم التصوف مر بعصور تدهور كثيرة مما جعلته ينهدُ شيئًا فشيئًا، وعلى الرغم من ذلك فإنه مازال يتمسك به كثير من البلاد والعباد فنجده في بلاد شرق أسيا وأفريقيا وكثير من بلاد أوروبا، ولكن لما أُقحم في جوهره ما لا يحمد عقباه، ولم يسلم –أيضًا– من القيل والقال فبدأ كثير من علماء السلف يحذرون من الغلو فيه، وبيان السليم منه والزائف، ومن ذلك أقوال ابن الجوزي وابن تيمية والذهبي[1]، وكلام هؤلاء السادة معلوم في الثناء على علم التصوف ورجالاته[2] وأعلامه، ولكن كانت مهمة النصح والإرشاد واجبة على عاتق رجال الدين، فقام هؤلاء العلماء وغيرهم بما يجب عليهم من توعية الناس وارشادهم إلى ما فيه صلاحهم؛ لأن المتبادر على أذهان الناس أن الصوفي رجل دين وله من علامات الصلاح والتقوى الكثير، فكان من اللازم على العلماء بيان مثل هذه الترهات والأراجيف التي تجعل الحليم حيرانًا والديار بلاقعَ. وقد جاء في مقدمة كتاب (اللمع): «إنها مدرسة المعرفة الصوفية النقية، حمل اللواء فيها: السراج والقشيري والهوجويري والسلمي والكلاباذي[3]، المدرسة التي حاربت في عنف وفي قسوة كل انحراف فلسفي، أو شطح ذوقي، تسرب إلى جوهر التصوف الإسلامي»[4]. وقد جاءت نصوص كثيرة، أشار إليها الكلاباذي في «التعرف» وعلق عليها القونوي في بيان وجوب الخضوع للشريعة.

---

(1) للوقوف على ثناءات ابن الجوزي في علماء الصوفية ينظر كتابي« تلبيس إبليس»، «صفة الصفوة» ولا سيما الأئمة الذين استنوا بالتصوف، وأما الذهبي فينظر كلامه في أكثر من كتاب ولاسيما كتاب «سير أعلام النبلاء»، وأما ابن تيمية فينظر «مجموع الفتاوى» (٥/ ٤٩١).

(2) رجالات: جمع رجل ، فإن كلمة «رجل» تجمع على رجال ورجالات، كحمل تجمع على جمال وجمالات، وقيل رجالات جمع الجمع. انظر تاج العروس (١٤/ ٢٦٣).

(3) قال ابن تيمية –في معرض ثناءه على كتاب التعرف للكلاباذي–: وَقد جمع كَلَام الْمَشَايِخ إِمَّا بِلَفْظِهِ أَو بِمَا فهمه هُوَ غير وَاحِد فصنف أَبُو بكر مُحَمَّد بن إِسْحَاق الْكلاباذى كتاب «التعرف لمذاهب التصوف وَهُوَ أَجود مِمَّا ذكره أَبُو الْقَاسِم وأصوب وَأقرب إِلَى مَذْهَب سلف الْأمة وأئمتها وأكابر مشايخها». الاستقامة (ص ٨٣). وسماه الكلاباذي بالتعرف، إخبارًا عن الغرض بما فيه. فهو أقدم الكتب المؤلفة في التصوف، إذ إن وفاة الكلاباذي كانت سنة ٣٨٠هـ.

(4) مقدمة المحققين (ص١١). ومما يستوجب التوقف والتأمل هنا: تعظيم أئمة التصوف السني، بحسب تقسيم المتصوفة، لأئمة التصوف الفلسفي الغالين!!. فهذا الحلاج، وهو لا شك من الغالين المنحرفين، يجد كل الثناء والرضى من الأئمة المعدودين في دائرة الاعتدال، كأبي عبد الرحمن السلمي، والطوسي، والقشيري، والهوجويري، وغيرهم.. !! وليس الحلاج فحسب، بل كذلك ابن عربي الفيلسوف، الذي يلقى كل التوقير والاحترام من أئمة التصوف المنصفين في دائرة الاعتدال. ومما يؤخذ على كتابنا ما أورد فيه مؤلفه عن كثير من الشطحات والمشكلات، وأتي بما ورد على ألسنة كبار الصوفية من كلام عن الوحدة والاتحاد والحلول، وأخذ يبحث لها عن تأويلات ومخارج، يدرأ بها عنهم. ولكن على كل حال، فإن كتابي «اللمع» و«التعرف» –كما قال

◘ فالرجوع إلى السنة والعمل بها في كتاب الله كان دأب كبار الصوفية وأئمتهم، ثم مرت السنون وتوالت القرون والتصوف بعافية وازدهار وتطور، فلما استدار الزمان وعاد كهيئته، وكان لكل عمل شره وفترة فدخل في صفوف المتصوفة عناصر أجنبية أرادات أن تستأصل شأفة هذا العلم [1]، وهذا كان مبعثه -والله أعلم- الحقد والحسد المتوغلين في أغوار قلوبهم وصدورهم، ونحن لم نأمر بأن ننقب عن صدور الناس وقلوبهم، فالله يعلم الباطن ويتولى السائر قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [القصص] والظاهر أن كثيرًا من هؤلاء المقلدة أناس لا خلاق لهم، يكيدون للإسلام وأهله، وغالب هؤلاء إما متأثرين بالثقافات الأوروبية أو الشيعة الباطنية أو الفلاسفة القدامى مما جعل الأمر يزداد سوءًا وإفراطًا، فبدأ كثير من الزهاد والمتنسكة ينصرفون عن علم التصوف وأصوله، وبالتالي تغافلوا عن الجوانب الإيجابية والأخلاقية فيه علاوة على انفتاح المجتمع الإسلامي على الثقافات الأخرى، ومن ثم فُتح الباب على مصراعيه للوافدين ممن أدخلوا في التصوف ما ليس منه مثل القول بوحدة الوجود والاتحاد والحلول والقول بالإنسان الكامل[2] وغير ذلك من الأمور المنبوذة شرعا وعرفًا.

◗ ولعل الناظر في كتب الصوفية الأوائل يجد أنهم اهتموا بتأصيل العلوم الأخلاقية وربطوا ذلك بالعمل والسلوك، كما اهتموا بالتركيز على الجانب العقدي في توطيد العلاقة بين العبد وربه، وكيفية وقوف المريد على السبل المرضية من أجل أن يهذب أخلاقه ويزداد بذلك رسوخًا وقربًا من الله تعالى، ولذلك كان اهتمامهم -كما هو شأنهم- بعلاج أمراض القلوب مثل الحقد والحسد والجشع والطمع والرياء وتعلق القلب بغير الله والأماني، والحدّ من الشهوات مثل كثرة الطعام والشراب والنوم والكلام، ومن ثم التركيز على العبادات والمعاملات. قال محمد الأمين الشنقيطي[3] صاحب كتاب «أضواء البيان»: «وَلَا شَكَّ أَنَّ مِنْ الصوفية مَنْ هُوَ عَلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ مِنَ الْعَمَلِ بِكِتَابِ الله وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَبِذَلِكَ عَالَجُوا أَمْرَاضَ قُلُوبِهِمْ وَحَرَسُوهَا، وَرَاقَبُوهَا وَعَرَفُوا أَحْوَالَهَا،

أستاذنا مصطفى حلمي- من أهم مصادر التصوف... فقد غلب عليها الطابع الثاني، أو بعبارة أخرى، فإن صبغتها تتسم بالتأييد المطلق، ومعالجة التصوف بها ينبغي أن يكون عليه، ووضعها الصوفية المرتبة الأولى قبل الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين، وكأنها من التصوف علمًا معياريًا. «ابن تيمية والتصوف (ص٦٤).

(1) قال الشيخ مصطفى عبد الرزاق في وصفه لمظاهر انحطاط التصوف: «ولابد أن نطرح قبل ذلك بأننا أهملنا عن عمد دور الانحطاط الذى انتهى إليه التصوف في عهوده المتأخرة. وهو الدور الذي لا نزال نشهده والذي جعل من طريقه الإخلاص والزهد والعرفان والخير أداة عش ومطامع وجهل وفساد». ينظر: «ابن تيمية والتصوف» للدكتور مصطفى حلمي (ص٣٢).

(2) ابن عربي هو أول من استعمل هذا التعبير في تاريخ الإسلام، هذا (الإنسان الكامل) هو التعين الأول، نائب عن الله، ظل الله، وهو في مرتبة برزخية بين الخلق والحق، وله صفات الخلق وصفات الحق، فهو موضع نظر الإله، وبه يدبر الأمر، وهو الواسطة بين الخلق والخالق، فبدونه ليس للخلق طريق إلى الله تعالى. الإنسان الكامل في الفكر الصوفي لخوجة (ص١٣١).

(3) هو الشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني، ولد عام ١٣٢٥هـ بشنقيط (موريتانيا) ، واجتهد في طلب العلم، وكان آية في التفسير والأصول، له المؤلفات النافعة في عدة فنون على رأسها (تفسير أضواء البيان)، كما كان له جهود مشكورة في الدعوة إلى الله تعالى ونشر العلم الشرعي، وكان زاهدًاورعًا تقيًا، وله تلاميذ كثيرون، توفي بمكة سنة ١٣٩٣هـ. انظر: ترجمة عطية سالم للشنقيطي في آخر الجزء التاسع من أضواء البيان، وكتاب ترجمة محمد الأمين الشنقيطي، لعبد الرحمن السديس.

وَتَكَلَّمُوا عَلَى أَحْوَالِ الْقُلُوبِ كَلَامًا مُفَصَّلًا كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ.. لِأَنَّهُمْ عَالَجُوا أَمْرَاضَ أَنْفُسِهِمْ بِكِتَابِ الله وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَلَا يَحِيدُونَ عَنِ الْعَمَلِ بِالْكِتَابِ، وَالسُّنَّةِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَلَمْ تَظْهَرْ مِنْهُمْ أَشْيَاءُ تُخَالِفُ الشَّرْعَ. فَالْحُكْمُ بِالضَّلَالِ عَلَى جَمِيعِ الصُّوفِيَّةِ لَا يَنْبَغِي، وَلَا يَصِحُّ عَلَى إِطْلَاقِهِ، وَالْمِيزَانُ الْفَارِقُ بَيْنَ الْحَقِّ، وَالْبَاطِلِ فِي ذَلِكَ هُوَ كِتَابُ الله وَسُنَّةُ رَسُولِهِ ﷺ. فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ مُتَّبِعًا لِرَسُولِ الله ﷺ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَهَدْيِهِ وَسَمْتِهِ، كَمَنْ ذَكَرْنَا وَأَمْثَالِهِمْ، فَإِنَّهُمْ مِنْ جُمْلَةِ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ، وَلَا يَجُوزُ الْحُكْمُ عَلَيْهِمْ بِالضَّلَالِ. وَأَمَّا مَنْ كَانَ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ فَهُوَ الضَّالُّ»[1].

(١) (٤/ ٨٨).

محتوى البحث

ينقسم البحث أقسامًا؛ وهي:

ثمانية أبواب، وخاتمة، وفهارس:

.

الباب الأول: لمحة عن التصوف

ويتضمن ثلاثة فصول:

الفصل الأول: تعريف التصوف وأصل الاشتقاق

الفصل الثاني: ماهية التصوف

الفصل الثالث: الحلول ووحدة الوجود

الفصل الأول: تعريف التصوف وأصل الاشتقاق

تعريف التصوف لغة:

«تَصَوَّفَ» الرجل وهو «صُوفِيٌّ» من قوم «صُوفِيَّةٍ» كلمة مولدة[1]. وأصل الكلمة ارتبطت بالزهد والتخلص من متاع الدنيا الزائد، فرجل صوفي أي زاهد، ومضى هذا التعميم على القرون الثلاثة المفضلة، ولذا نجد بعض المصنفين -مثل أبي نعيم في «الحلية» والشعراني في «طبقاته الكبرى»- يدخل كبار الصحابة في مقام الزهد. وفيما يتعلق بالمحققين من الصوفية فإنهم لم يتفقوا على رأي واحد -فيما يتعلق بأصل التصوف- لأنه علم مستحدث، فما قرره بعضهم رده البعض الآخر، وقد رجعوا بالكلمة إلى **أصول ستة أو سبعة**، هي:

١- الصّفَة: بتشديد الصاد مع كسرها وفتح الفاء بعدها. وهو موضع في مسجد النبي ﷺ يأوي إليه فقراء المهاجرين وهم كما وصفهم أبو هريرة: «وَأَهْلُ الصُّفَّةِ أَضْيَافُ الإِسْلاَمِ، لاَ يَأْوُونَ عَلَى أَهْلٍ، وَلاَ مَالٍ، وَلاَ عَلَى أَحَدٍ»[2]. قال الكلاباذي في «التعرف»: (وَقَالَ قوم: إِنَّمَا سموا صوفية لقرب أوصافهم من أَوْصَاف أهل الصّفة الَّذين كَانُوا على عهد رَسُول ﷺ). وقال السهروردي في «عوارف المعارف» (١/ ٧٢): (وقيل: سموا صوفية نسبة إلى الصفة التي كانت لفقراء المهاجرين على عهد رسول اللهّ ﷺ)، وقال القشيري: «فالنسبة إِلَى الصفة لا تجيء عَلَى نَحْو الصوفي»[3].

---

(١) المصباح المنير (ص١٨٣)، مادة [ص و ف] الصُّوفُ. وفيما يتعلق بتعريف التصوف فقد كثرت أقوال الصوفية في تعريفه، حتى قال السهروردي: «وأقوال المشايخ في ماهية التصوف تزيد على ألف قول»، حتى إن الواحد من شيوخ الصوفية الأوائل كان يعرف التصوف بأكثر من مائة تعريف.وجمع بعض الباحثين أكثر من خمسة وستين تعريفًا للتصوف، صادرة عن أئمة التصوف في القرنين الثالث والرابع الهجريين، وفيما يلي بعض تعريفات الصوفية الأوائل للتصوف، قال: الجنيد: التصوف: تصفية القلب عن موافقة البشرية، وقال: أيضًا: التصوف: أن تكون مع الله بلا علاقة، وقال: التصوف: أن يميتك الحق عنك، ويحييك به، وقال الشبلي: التصوف: العصمة من رؤية الكون، وقال أيضًا: التصوف: الجلوس مع الله بلا وهم، وقال أيضًا: التصوف شرك؛ لأنه صيانة القلب عن رؤية الغير؛ ولا غير. وقال جعفر الخلدي: التصوف: طرح النفس في العبودية، والخروج من البشرية، والنظر إلى الحق بالكلية. وقال الصيرفي: التصوف: إسقاط رؤية الخلق ظاهرًا وباطنًا)، قال الحصري: الصوفي: من كان وجده وجوده، وصفاته حجابه، أي: من عرف نفسه عرف ربه. وقال أيضًا: الصوفي: من لا يجدون له وجودًا كوجودهم، وقال الطوسي: فإن قيل لك: الصوفية من هم في الحقيقة؟ صفهم لنا، فقل: هم العلماء بالله، وبأحكام الله، العاملون بما علمهم الله تعالى، المتحققون بما استعملهم الله ﷻ، الواجدون بما تحققوا، الفانون بما وجدوا؛ لأن كل واجد قد فني بما وجد. وقال الخرقاني: ليس الصوفي بمرقعته وسجادته، ولا برسومه وعاداته، بل الصوفي من لا وجود له، وقال الخراز: الصوفي: من صفى ربه قلبه. كما يوجد اثنى عشر تعريفًا يشير إلى اشتقاق كلمة الصوفي من الصفاء . ينظر: عقيدة الصوفية لأحمد عبد العزيز القصير (ص٩٥).

(٢) ينظر: صحيح البخاري (٦٤٥٢) كتاب الأدب، ١٧- بَابُ كَيْفَ كَانَ عَيْشُ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، وَتَخَلِّيهِمْ عَنِ الدُّنْيَا.

(٣) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٤٠).

٢- الصفاء: قال الكلاباذي: (قَالَت طَائِفَة: إِنَّمَا سميت الصُّوفِيَّة صوفية لصفاء أسرارها ونقاء أثارها، وَقَالَ بشر بن الْحَارِث: الصُّوفِي: من صفا قلبُه لله تعالى). وقال السهروردي في «عوارفه»[١]: (وقيل: كان هذا الاسم في الأصل صفوى فاستثقل ذلك وجعل صوفيًا). وهذا ما رجحه القونوي وغيره في شرحه على «التعرف» (ص٤٤) فقال: «لا يكون في قلبه سوى محبة الله تعالى ولا يشتغل بشيء سواه، وذلك أن قلب المؤمن محل نظر الله تعالى فيجب أن يكون صافيًا عمَّا سواه».

٣- الصف الأول: قال الكلاباذي في «التعرف»: (وقال قوم: إنما سميت صوفية؛ لأَنهم فِي الصَّفّ الأول بَين يَدي الله تعالى)[٢] يعني بارتفاع هممهم إِلَيْهِ وإقبالهم بقلوبهم عَلَيْهِ ووقوفهم بسرائرهم بَين يَدَيْهِ). وقال السهروردي: (وقيل: سموا صوفية؛ لأنهم في الصف الأول بين يدي الله ﷻ لارتفاع همهم، وإقبالهم على الله تعالى بقلوبهم، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه) أي كقول الكلاباذي، وقال ابن تيمية: «وَقِيلَ: نِسْبَةٌ إِلَى الصَّفِّ الْمُقَدَّمِ بَيْنَ يَدَيْ الله وَهُوَ أَيْضًا غَلَطٌ؛ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَقِيلَ: صفي»[٣].

٤- الصوف: قال الكلاباذي في «التعرف»: (وقيل: إنما سموا صوفية للبسهم الصُّوف) **قال القونوي في «شرح التعرف»**: (وإنما اختاروا لبسه؛ لأنه أرفق ولكونه كان لباس الأنبياء عليهم السلام وشعار الصالحين)، وقال السهروردي في «عوارفه»: «فمن هذا الوجه ذهب قوم إلى أنهم سموا صوفية، نسبة لهم إلى ظاهر اللبسة، لأنهم اختاروا لبس الصوف لكونه أرفق، ولكونه كان لباس الأنبياء عليهم السلام [٤].

◄ **قال القونوي في «شرح التعرف»**: (وقد اختار هذا القول وهو أن تسميتهم صوفية لأجل اختيارهم لبس الصوف بعض المحققين من المتأخرين وقال غير هذا المعنى مما يقال إنهم سموا صوفية لذلك يتضمن الدعوى، وإذا قيل: سموا صوفية للبسهم الصوف كان أبعد عن الدعوى، وكلما كان أبعد عن الدعوى كان أليق بحالهم، ولا بأس بإظهار التجمل للناس فقد جاء أن رسول الله ﷺ كان له ما يلبُسه للوفود).

٥ - صوفة: قال ابن القيسراني في «صفوة التصوف»: «كَانَ قَوْمٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يُقَالُ لَهُمْ: صُوفَةٌ، انْقَطَعُوا إِلَى الله ﷻ وَقَطَنُوا الْحَرَمَ، فَمَنْ تَشَبَّهَ بِهِمْ فَهُمُ الصُّوفِيَّةُ. قَالَ عَبْدُ الْغَنِيِّ: هَؤُلاءِ الْمَعْرُوفُونَ بِصُوفَةٍ هُمْ وَلَدُ الْغَوْثِ بْنِ مُرٍّ أَخِي

---

(١) عوارف المعارف (١/ ٧٢).

(٢) ثبت في الصحيحين من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: « لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الأَوَّلِ» ومن المعلوم قطعًا عند الصوفية أنهم لا يأخذون عوضًا عن العبادة كما ورد عن رابعة وغيرها، ولذلك رد الطوسي صاحب «اللمع» استدلال الكلاباذي بقوله: «ومن آدابهم أيضًا أنهم يكرهون الإمامة ، والصلاة في الصف الأول ، بمكة وغيرها ويكرهون التطويل، أما الإمامة فلو أن أحدهم يحفظ القرآن، فإنهم يختارون الصلاة خلف من يحسن أن يقرأ الحمد وسورة أخرى، وأما ترك الصلاة في الصف الأول، فإنهم يريدون بذلك ألا يزاحموا الناس ويضيقوا عليهم، لأن الناس يزدحمون ويطلبون الصف الأول» .

(٣) مجموع الفتاوى (١١/ ٦).

(٤) «عوارف المعارف» (١/ ٧٠).

تَمِيمِ بْنِ مُرٍّ»[1]. «وقيل: نسبة إلى صوفة بن مر بن أد بن طانجة قبيلة من العرب كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم ينسب إليهم النساك، وهذا وإن كان موافقًا للنسب من جهة اللفظ فإنه ضعيف أيضًا؛ لأن هؤلاء غير مشهورين ولا معروفين عند أكثر النساك، ولأنه لو نسب النساك إلى هؤلاء لكان هذا النسب في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أولى، ولأن غالب من تكلم باسم «الصوفي» لا يعرف هذه القبيلة، ولا يرضى أن يكون مضافًا إلى قبيلة في الجاهلية لا وجود لها في الإسلام»[2].

٦- صوفانة: قال ابن الجوزي: «وَقَدْ ذهب إِلَى أنه من الصوفانة وهي بقلة رعناء قصيرة فنسبوا إليها لاجتزائهم بنبات الصحراء وهذا أيضا غلط؛ لأنه لو نسبوا إليها لقيل صوفاني، وقال آخرون: هو منسوب إِلَى صوفة القفا وهي الشعرات النابتة فِي مؤخره كأن الصوفي عطف به إِلَى الحق وصرفه عَن الخلق، وقال آخرون: بل هو منسوب إِلَى الصوف وهذا يحتمل، والصحيح الأَوَّل»[3].

وهذا ما رجحه الكلاباذي في «التعرف» فقال: «فقد اجْتمعت هَذِه الْأَوْصَاف كلهَا ومعاني هَذِه الْأَسْمَاء كلهَا فِي أسامى الْقَوْم وألقابهم، وَصحت هَذِه الْعبارَات، وَقربت هَذِه المآخذوَإِن كَانَت هَذِه الْأَلْفَاظ متغيرة فِي الظَّاهِر فَإِن الْمعَانِي متفقة »[4].

❁ الراجح:

✍ النسب كلها مرجوحة مرفوضة من حيث اللغة باستثناء النسبة إلى الصوف إلا أن القوم لم يختصوا بلبسه، فهناك من الزهاد من يلبس الصوف؛ و ما هم بصوفية، وهناك طوائف كثيرة من الصوفية لا يلبسون الصوف، وكثير من أئمة الصوفية اتفقوا على كونها مشتقة من الصوف كالكلاباذي والقشيري والطوسي وغيرهم[5]. وقديمًا رجح الهوجويري أن الصوفية اسم علم[1]، ولذا قال ابن خلدون: لو استعرضنا طوائف

---

(1) (ص١٩).

(2) مجموع الفتاوي (مصدر سابق). يؤيد ابن الجوزي هذه الرواية، كما أنه يعتبر هذه الرواية على أن أصل مولد الكلمة كان قبل الإسلام عند عرب الجاهلية، وإن من تعلق بالزهد فيما بعد وانقطع للعبادة فقد انتسب إلى صوفة هذا. تلبيس إبليس (ص ١٤٥). بينما يرى السراج الطوسي أن وجود التصوف في وقت مبكر في الإسلام واستدل بأثر عن الحسن البصري رأى صوفيًا في الطواف فعرض عليه شيئًا من المال فلم يأخذه. وكذلك أورد عن الثوري قوله: لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء. ينظر اللمع للطوسي.

(3) تلبيس إبليس (ص١٤٦).

(4) التعرف (ص٢٤-٢٥).

(5) هو اختيار الكثيرين من الصوفية وغيرهم كأبي طالب المكي، والسهروردي وأبي المفاخر يحيى باخرزي ، وابن تيمية ، وابن خلدون من المتقدمين. والأستاذ مصطفى عبد الرزاق ، والدكتور زكي مبارك، والدكتور عبد الحليم محمود، والدكتور قاسم غني، ومن المستشرقين مرجليوس، ونيكلسون ، وماسينيون ، ونولدكه وغيرهم من المتأخرين. التصوف المنشأ والمصادر (ص٣٤). وفيما يتعلق بمرجحات الصوف على غيره فإنها كثيرة ومنها: أنه لباس الأنبياء والصالحين، ومنها: أن التصوف مصدر الفعل الخماسى المصوغ من صوف، للدلالة على لبس الصوف، وكما يقال: تقمص إذا لبس القميص، يقال: تصوف إذا لبس الصوف. وأما من القرآن فقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾ [النحل]، وقوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ

الناس كالصناع والزراع والعمال لانجد أن طائفة منهم يغلب على أفرادها لبس الصوف كما غلب في طائفة الصوفية، وقال أيضًا: إن هذه الطائفة كانت تلبس الصوف زهدًا وتورعًا عن لبس فاخر الثياب. أما سائر الناس من غيرهم فيلبسونه لا لهذه الغرض الذي ينشده الصوفي، وحينئذ يكون تميزهم بلبس الصوف أمرًا واضحًا[٢].

تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ [النحل] قال البخاري في كتاب التفسير (٢/ ٨٢) ﴿سَرَابِيلَ﴾: قُمُصٌ. وقال قتادة: من القطن والكتان والصوف. تفسير الطبري (١٤/ ٣٢١). وأخرج أبو داود(٣٥٣) في باب الرُّخْصَةِ فِي تَرْكِ الْغُسْلِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ بإسناد حسن من حديث ابن عباس مرفوعًا... وفيه «كَانَ النَّاسُ مَجْهُودِينَ يَلْبَسُونَ الصُّوفَ وَيَعْمَلُونَ عَلَى ظُهُورِهِمْ». وأخرج الترمذي في جامعه (٢٤٧٩) بإسناد صحيح من حديث أبي بردة: «وفيه لَحَسِبْتَ أَنَّ رِيحَنَا رِيحُ الضَّأْنِ». قال الترمذي: «وَمَعْنَى هَذَا الحَدِيثِ أَنَّهُ كَانَ ثِيَابَهُمُ الصُّوفُ». وأخرج مسلم(٢٣١٥) في كتاب العلم: عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: «جَاءَ نَاسٌ مِنَ الأَعْرَابِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، عَلَيْهِمِ الصُّوفُ». وأخرج الشيخان عن المغيرة بن شعبة وفيه «فَغَسَلَ وَجْهَهُ، وَعَلَيْهِ جُبَّةٌ مِنْ صُوفٍ». ولكن كان أحب الثياب إليه الحبرة وهي من القطن أو الكتاب كما في البخاري(٥٨١٢) في كتاب اللباس من حديث أَنَسٍ، قَالَ: قُلْتُ لَهُ: أَيُّ الثِّيَابِ كَانَ أَحَبَّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ؟ قَالَ: الحِبَرَةُ. وفي المعجم الصوفي (١/ ٣٥٧): فمن مجموع ما تقدم من الأصول النبوية ، يمكن القول أن الصوف لم يكن ملبسا دأب النبي ﷺ أو أحد أصحابه على تفضيله أو استعماله، فدعوى السراج الطوسى: «إن لبس الصوف، دأب الأنبياء عليهم السلام والصدقين وشعار المساكين» تفتقر إلى الدليل. علاوة على أن استدلالات الصوفية كلها لا تخلو من مقال ومنها: «كَانَ عَلَى مُوسَى يَوْمَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ ، كِسَاءُ صُوفٍ، وَجُبَّةُ صُوفٍ». والحديث الأخر وهو ضعيف أيضًا: «لَبِسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الصّوفَ، وَاحْتَذَى الْمَخْصُوفَ». وألجأ الدكتور محمد السيد الجليند في كتابه من قضايا التصوف في ضوء الكتاب (ص١٩) بأن الدافع إلى لبس الصوف هو الزهد. بينما كره الإمام مالك لبس الصوف إذا كان لباس الشهرة كما في شرح البخاري لابن بطال (٩/ ٨٦).

(١) المعجم الصوفي (١/ ٣٤٦) وهذا ما رجحه الدكتور الرضواني فقال في نفس المصدر: «ومن ثم لجأ كثير من المحققين إلى جعل النسبة عَلَمًا بلا اشتقاق معروف، واعتبروه اسمًا بلا وصف أو علمًا على ذات التصوف، دون البحث عن مضمون الاسم أو محتواه، وهؤلاء عندي أقرب إلى الصواب». قلت: الصوفية لم يظهروا مذهبهم هذا، ولا عرفوا بهذا الاسم، إلا بعد ترجمة كتب اليونان إلى العربية، في القرن الثاني الهجري.

(٢) مقدمة ابن خلدون (٢/ ١٥٠).

الفصل الثاني: ماهية التصوف

تتضح ماهية التصوف من خلال الكلام في المسائل التالية: الفناء، الاتحاد والحلول ووحدة الوجود.

أولًا: الفناء (توحيد الربوبية) وهل خلق الإنسان ليفنى أم لعيش حياة طيبة؟![1]

◘ الفناء يرد على عدة معان: الموت والهلاك، ومنها قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن]. وقد يراد بالفناء نفاذ المحصول وانتهائه ومنه حديث جَابِرِ بْنِ عَبدِ الله في غزوة سيف البحر وفيه: «فَكَانَ يُقَوِّتُنَاهُ كُلَّ يَوْمٍ قَلِيلاً قَلِيلاً، حَتَّى فَنِيَ، فَلَمْ يَكُنْ يُصِيبُنَا إِلاَّ تَمْرَةٌ تَمْرَةٌ»[2]. **قال الكلاباذي:** (فالفناء هُوَ أَن يفنى عَنهُ الحظوظ فَلَا يكون لَهُ فِي شَيْء من ذَلِك حَظّ وَيسْقط عَنهُ التَّمْيِيز فنَاء عَن الأشياء كلهَا شغلًا بِما فنى بِهِ)[3]. **قال القونوي معلقًا:** «اعلم أن المفهوم من أول هذا الكلام هو الفناء المقيد بالأفعال والأوصاف المذمومة ومن آخره الفناء[4] للطلق وهو استيلاء سلطان الحقيقة على ما تقدم نقله عن صاحبي «الرسالة» و«العوارف»، ويجوز أن يكون المصنف أراد به الفناء المطلق بدليل قوله: (فناء عن الأشياء) إلى آخره غير أنه ذكر الفناء عن الحظوظ لا يستلزم الفناء المطلق الفناء عنها وعن غيرها[5].

◄ **قال الكلاباذي: (شرح قَوْلهم فِي التَّوْحِيد: أَجْمعت الصُّوفِيَّة على أَن الله تعالى وَاحِد أحد)** قال القونوي: «اختلف العلماء في هذين الاسمين فمنهم: من جعلهما بمعنى واحد، ومنهم من فرق بينهما فقيل: «واحد في ذاته أحد في صفاته وقيل بالعكس». وقيل: «واحد لا مثل له»، وقيل: «واحد لا جزء له»، فالواحد لا يثنى والأحد لا

---

(1) يقول الدكتور مصطفى حلمي: «وهذا الفناء في مدلوله.. ينبغي أن يوجه الباحث إلى أنه ليس دليلًا على كمال المحبة قوة درجات اليقين والإيمان؛ لأنه لو كان كذلك لعرفناه عند الصحابة فضلًا عمن فوقهم من الأنبياء». ابن تيمية والتصوف (ص٣٩٣). ويقول عبد الرحمن الوكيل: «هذا اصطلاح صوفي تمهيدًا لتقرير وحدة الوجود، وظني أن أول من تكلم به هو طيفور بن عيسى البسطامي، فكيف يكون هذا من تسمية أهل الله؟! وما قرره في مفهومه الصوفي الكتاب والسنة، ولا تكلم به صحابي ولا تابعي». مصرع التصوف (ص١٨٢ مع الحاشية).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٨٣) ٤٧- كِتَاب الشَّرِكَةِ، ١- الشَّرِكَةِ فِي الطَّعَامِ وَالنِّهْدِ وَالعُرُوضِ.

(3) التعرف (ص١٢٣).

(4) ونجد أئمة التصوف يذكرون مصطلحات أخرى غير الفناء، غير أنها كلها تدور حول معنى الفناء، كالاصطلام، والمحو، والسكر، والجذب، والوجد، والاضمحلال. الإنسان الكامل في الفكر الصوفي (ص١٠١).

(5) من العبارات التي تدل على الفناء استخدمها الكلاباذي وعلق عليها القونوي: (وَقَالَ سهل بن عبد الله: انْتَهَت همم العارفين إِلَى الْحجب فوقفت مطرّقة فَأذن لَهَا فَسلمت فَخلع عَلَيْهَا خلع التأييد وَكتب لَهَا بَرَاءَة من الزيغ، وهمم الْأَنْبِيَاء جالت حول الْعَرْش فكسيت الْأَنْوَار وَرفع مِنْهَا الأقذار واتصلت بالجبار، فأفنى حظوظها وَأسْقط مرادها، وَجعلهَا متصرفة بِهِ لَهُ). وقوله: (سَمِعت فَارِسًا يَقُول: مَتى تظاهر فِي خواطره الهجوس على دواعي ملمات النُّفُوس وجد السَّبِيل إِلَى تَرْجِيح الأولى فَيَقَع النشر، وَأما الوصلة فَإِنَّهَا تحجب مواد لإملاء فَيكون الْمرجع إِلَى الخرس عَن كل نفس) شرحها القونوي بمعنى الفناء.

يتجزئ وقيل بالعكس». وإن كان بعض الصوفية الأوائل قد سلك مسلك السلف في تعريف التوحيد كقول الجنيد: «التوحيد إفراد القديم عن الحديث». وقال أيضًا: «كل توحيد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو زندقة»[١].

◄ وقد أثنى ابن تيمية على بعض الأئمة الأوائل فقال: «إنهم مشايخ الإسلام وأئمة الهدى الذين جعل الله تعالى لهم لسان صدق في الأمة مثل سعيد بن المسيب والحسن البصري... إلى مثل المتأخرين: مثل الجنيد بن محمد القواريري وسهل بن عبد الله التستري وعمر بن عثمان المكي ومن بعدهم... متفقون على أن الله سبحانه ليس هو خلقه ولا جزءًا من خلقه ولا صفة لخلقه بل هو ﷻ متميز بنفسه المقدسة بائن بذاته المعظمة عن مخلوقاته»[٢]. فكلام المصنف عن التوحيد في هذا المواطن قريب من قول السلف ولكن في مواطن أخرى ينصب على معنى واحد، وإن تكررت العبارة وتغايرت الألفاظ، فهو معاينة للذات الإلهية، ولو دقق الشخص النظر فيما أورده الشارح من أقوال عن أئمة الصوفية سيجد أن هدفهم ومرادهم واحد. والفناء له معاني ثلاث قد أوردها ابن تيمية في كتابه «مجموع الفتاوى»[٣]. والناظر في كلام أئمة السلف يجد أن عبارتهم كانت شاملة لمعنى التوحيد من جميع أركانه ولم يرد أن أحدهم تناول التوحيد بمعنى الفناء في ذات الله[٤]، وقد تطرق بعض العلماء مثل الغزالي وغيره عن تصفية النفس من الأخلاط والأوشاب التي تمنع تخلية العبد للوصول إلى الله تعالى. **قال القونوي** -ناقلًا تعريف التوحيد عن الإمام علي- فقال: «سئل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عن التوحيد فقال -ما معناه- «التوحيد: إن تعلم أن كل ما خطر ببالك أو توهمته في خيالك أو تصورته في حال من أحوالك، فالله وراء ذلك» وإليه يرجع قول الجنيد[٥] التوحيد: «هو افراد القدم من الحدوث».

---

(١) حلية الأولياء (١٠/ ٢٥٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٢/ ٤٧٥).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢١٨) حيث قال: (فأما الأول) فهو « الفناء عن إرادة ما سوى الله» بحيث لا يحب إلا الله. ولا يعبد إلا إياه ولا يتوكل إلا عليه ولا يطلب غيره... وأما النوع الثاني: فهو « الفناء عن شهود السوى». وهذا يحصل لكثير من السالكين؛ فإنهم لفرط انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبته.. وأما النوع الثالث: مما قد يسمى فناء: فهو أن يشهد أن لا موجود إلا الله وأن وجود الخالق هو وجود المخلوق فلا فرق بين الرب والعبد فهذا فناء أهل الضلال والإلحاد الواقعين في الحلول والاتحاد. والمشايخ المستقيمون إذا قال أحدهم: ما أرى غير الله أو لا أنظر إلى غير الله ونحو ذلك فمرادهم بذلك ما أرى ربًا غيره ولا خالقًا غيره ولا مدبرًا غيره ولا إلهًا غيره ولا أنظر إلى غيره محبة له أو خوفًا منه أو رجاء له.

(٤) ولتجلية هذا المعنى نذكر بعض أقوال الصوفية المعاصرين والقدامى. قال محمد زكى إبراهيم في مجلة التصوف الإسلامي، عدد رجب ١٤١٤هـ: «التصوف فناء صفة العبد، ببقاء صفة المعبود». وفي الرسالة للقشيري (٢/ ٤٤١): «قال المرعشي سئل شيخي عَنِ التصوف فَقَالَ: سمعت الجنيد وَقَدْ سئل عَنْهُ فَقَالَ: هُوَ أَن يميتك الحق عَنْك ويحييك بِهِ». وقال في موضع آخر: «التوحيد إفراد القديم عن الحدث». وقال الجرجاني في «التعريفات» (ص٦٠) عن التصوف: «إخماد صفات البشرية، ومجانبة الدعاوى النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية». وقال الغزالي في الإحياء (٤/ ٣٠٦): «فالذي يذكر هو قرب العبد من ربه ﷻ في الصفات التي أمر فيها بالاقتداء والتخلق بأخلاق الربوبية حتى قيل تخلقوا بأخلاق الله». قال الجرجاني في التعريفات(ص١٦٩): الفلسفة: التشبه بالإله بحسب الطاقة البشرية؛ لتحصيل السعادة الأبدية، كما أمر الصادق ﷺ في قوله: «تخلقوا بأخلاق الله»، أي تشبهوا به في الإحاطة بالمعلومات والتجرد عن الجسمانيات.

(٥) الجُنَيْد بن محمد بن الجُنَيْد، أبو القاسم البَغْداديُّ. وُلِد ببغداد بعد العشرين ومائتين، واختصّ بصُحبة السري السقطي، والحارث المحاسبي. وأتقن العلم، ثمّ ثمّ أقبل على شأنه، واشتغل بما خُلِق له. تاريخ الإسلام (١٤٦).

◀ **وأما عن أنواع الفناء فقد قسمه القشيري** في رسالته[1] قائلًا: « فالأول فناء عَن نَفْسه وصفاته ببقائه بصفات الحق ثُمَّ فناؤه عَن صفات الحق بشهوده الحق ثُمَّ فناؤه عَن شهود فنائه باستهلاكه فِي وجود الحق». أما الغزالي فقد قسم التوحيد قالًا: «للتوحيد أربع مراتب وينقسم إلى لب وإلى لب اللب وإلى قشر وإلى قشر القشر... فالرتبة الأولى من التوحيد هي أن يقول الإنسان بلسانه: (لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله) وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المنافقين. والثانية: أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام. والثالثة: أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام المقربين، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار. والرابعة: أن لا يرى في الوجود إلا واحدًا، وهي مشاهدة الصديقين وتسمية الصوفية الفناء في التوحيد؛ لأنه من حيث لا يرى إلا واحدًا فلا يرى نفسه أيضًا، وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقًا بالتوحيد كان فانيًا عن نفسه في توحيده بمعنى أنه فني عن رؤية نفسه»[2]. فشتان بين توحيد[3] الله الذي دعا إليه أنبيائه ورسله، وأمرهم بتبليغه لأقوامهم بالحكمة والموعظة الحسنى والآخر المزعوم فهل كانت دعوتهم إلى توحيد الله أي فناء المخلوق في الخالق أي صار الشخص وقد فني في ذات الله هل هذا يعقل ويوافق القياس والفطرة ؟!!

✍ **قال الكلاباذي في «التعرف»**: (وَقَالَ بَعضهم: «التَّوْحِيد هُوَ الْخُرُوج عَن جميعك بِشَرْط اسْتِيفَاء مَا عَلَيْك، وَأَن لَا يعود عَلَيْك مَا يقطعك عَنهُ» قال المصنف: (مَعْنَاهُ تبذل مجهودك فِي أَدَاء حق الله ثمَّ تتبرأ من رُؤْيَة أَدَاء حَقه، ويستوفيك التَّوْحِيد عَن أوصافك فَلَا يعود عَلَيْك مِنْهَا شَيْء، فَإِنَّهُ قَاطع لَك عَنهُ) **قال القونوي في شرحه**: «معنى خروجك عن جميعك أن لا ترى لنفسك حركة ولا سكونًا ولا حالًا من الأحوال كائنًا ما كان إلا من الله وبالله، وأن تفنى عن جميع ذلك وتبقى مع الله تعالى، وذلك بشرط أن تستوفي بالله عليك من الحقوق والتكاليف».

◀ ومن المعلوم أن مقام الفناء -عند القوم- هو مرحلة متطورة من مراحل الكشف والمجاهدة، وهذه المرحلة لا تأتي تلقائيًا بل لابد لها من مجاهدات ورياضيات واقبال من الشخص نفسه، وهذا لا يصل إليه أحد إلا بتصفية قلبه من الشوائب التي تتعلق به.

---

(1) الرسالة القشيرية (1/ 172، 173).

(2) إحياء علوم الدين (4/ 245).

(3) وغاية ما ذكره المصنف في تعريف التوحيد يبدو إهماله لتوحيد الألوهية –الذي هو رحى الدين، وأساس الملة، والمقصود بشهادة أن لا إله إلا الله–حيث يذكر في التعريف، فإن غاية ما ذكر فيه توحيد الربوبية الذي يقر به المشركون، ولم ينكره أحد من بني آدم. ولهذا يقول شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى(3/ 101)« فقد تبين أن ما يسمونه توحيدًا: فيه ما هو حق، وفيه ما هو باطل ولو كان جميعه حقًا؛ فإن المشركين إذا أقروا بذلك كله لم يخرجوا من الشرك الذي وصفهم به في القرآن، وقاتلهم عليه الرسول ﷺ بل لا بد أن يعترفوا أنه لا إله إلا الله» وفي موضع آخر: « وكذلك طوائف من أهل التصوف والمنتسبين إلى المعرفة والتحقيق والتوحيد: غاية ما عندهم من التوحيد هو شهود هذا التوحيد، وأن يشهد أن الله رب كل شيء، ومليكه وخالقه، لا سيما إذا غاب العارف بموجوده عن وجوده، وبمشهوده عن شهوده، وبمعروفه عن معرفته، ودخل في فناء توحيد الربوبية بحيث يفنى من لم يكن، ويبقى من لم يزل، فهذا عندهم هو الغاية التي لا غاية وراءها. ومعلوم أن هذا هو تحقيق ما أقر به المشركون من التوحيد، ولا يصير الرجل بمجرد هذا التوحيد مسلمًا، فضلًا عن أن يكون وليًا لله، أو من سادات الأولياء».

الفصل الثالث: الحلول ووحدة الوجود

تعريف الحلول لغة واصطلاحًا:

مما بين ماهية التصوف ارتباطه بالحلول[1] والاتحاد وحدة الوجود، وهذه كلها مصطلحات فلسفية وتوضيحه فيما يلي: قسم الجرجاني الحلول إلى نوعين: الحلول السرياني: عبارة عن اتحاد الجسمين بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما إشارة إلى الآخر، كحلول ماء الورد في الورد، فيسمى الساري: حالًا، والمسري فيه: محلًا[2]. الحلول الجواري: عبارة عن كون أحد الجسمين ظرفًا للآخر، كحلول الماء في الكوز[3]. يقول ابن خلدون عن الصوفية: «فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة كما أشرنا إليه وملئوا الصحف منه مثل الهروي في كتاب المقامات له وغيره. و تبعهم ابن عربي و ابن سبعين وتلميذهما ابن العفيف وابن الفارض والنجم الإسرائيلي في قصائدهم»[4]. وفسرها القونوي في شرحه نقلًا عن المتكلمين بقوله: «وهو المراد بقولهم: الخلق عين المخلوق أي لم يصدر عن ذات الخالق عند الاتحاد أمر سوى المخلوق».

تعريف وحدة الوجود لغة واصطلاحًا

وحدة الوجود[5] في اللغة: الوَحدة (بفتح الواو): الانفراد. قال ابن فارس: «الْوَاوُ وَالْحَاءُ وَالدَّالُ: أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الِانْفِرَادِ»[6]. قال ابن منظور: «ووُجِدَ الشيءُ عَنْ عدَم، فَهُوَ مَوْجُودٌ»[7]. وفي المصباح المنير:

---

(1) الحلول في اللغة: النزول، مصدر حل يحل: إذا نزل بالمكان، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ [الرعد:٣١]، وأصل الحلول من حل عقد الحبال عند إنزال الأحمال: أي فتحها ونقضها. القاموس المحيط (١/ ٩٨٦)، لسان العرب (١١/ ١٦٣). فالحلول عند من يعتقده: هو نزول الذات الإلهية في الذات البشرية، ودخولها فيها، فيكون المخلوق ظرفًا للخالق بزعمهم. ويقول ابن تيمية في الجواب الصحيح (٤/ ٣٦٠): «ويقولون إن اللاهوت والناسوت اختلطا وامتزجا كما يختلط الماء واللبن والماء والخمر، وهذا القول هو حقيقة الاتحاد لا يعقل الاتحاد إلا هكذا». وقد نبه شيخ الإسلام في حقيقة مذهب الاتحادين (ص٤): إلى مباينة الحلول والاتحاد لوحدة الوجود، فقال: «اعلم أن حقيقة قول هؤلاء أن وجود الكائنات هو عين وجود الله تعالى، ليس وجودها غيره، ولا شيء سواه البتة، ولهذا من سماهم حلولية، أو قال: هم القائلون بالحلول، رأوه محجوبًا عن معرفة قولهم، خارجًا عن الدخول إلى باطن أمرهم؛ لأن من قال: إن الله يحل في المخلوقات، فقد قال بأن المحل غير الحال، وهذه اثنينية عندهم، وإثبات لموجودين. أحدهما وجود الحال، والثاني وجود المحل، وهم لا يقرون بإثبات وجودين ألبتة ».

(2) الحلول لا يخرج عن كونه خاصًا أو عامًا، فالحلول الخاص كقولهم: حلول اللاهوت في الناسوت. والحلول العام: أي الذين يقولون: إن الله بذاته في كل مكان، والاتحاد العام. وهو قول الملاحدة الذين يزعمون أنه عين وجود الكائنات.

(3) التعريفات (ص٩٢).

(4) مقدمة ابن خلدون (٢/ ١٥٩).

(5) أسماء أخرى لوحدة الوجود: التوحيد، الفردانية، المشاهدة، الشهود، الفناء، الحقيقة، التحقيق، الجمع، جمع الجمع، الإحسان .

(6) معجم مقاييس اللغة (٦/ ٩٠) (وَحَدَ).

(7) لسان العرب (٣/ ٤٤٦) (وَجدَ).

«الوُجُودُ: خلاف العدم»[1]. في الاصطلاح: إن الله تعالى والعالم شيء واحد!... أما عن سبب ظهور الله في صور الكائنات –عند أهل الوحدة– فهو أن الله كان وجودًا مطلقًا، ليس له اسم ولا صفة، ثم أراد أن يرى نفسه في مرآة هذا الوجود، وأن تظهر أسماؤه وصفاته، فظهر في صور الكائنات المعدومة العين، الثابتة في علمه تعالى[2].

◄ قال الكلاباذي في معنى التوكل: **(قَالَ بَعضهم: التَّوَكُّل سر بَين العَبْد وَبَين الله)** قال المصنف: **(مَعْنَاهُ كَمَا قَالَ بعض الكبراء: حَقِيقَة التَّوَكُّل ترك التَّوَكُّل، وَهُوَ أَن يكون الله لَهُم حَيْثُ كَانَ لَهُم إِذْ لم يَكُونُوا موجودين) قال القونوي**: «وأما تفسير المصنف فيرجع حاصله إلى البراءة من كل شيء حتى عن التوكل، وأن يكون العبد مع الله تعالى بعد وجوده كما كان قبل ذلك». وقال ابن القيم في ثنايا شرحه على «منازل السائرين» للهروي: «فَرَحْمَةُ الله عَلَى أَبِي إِسْمَاعِيلَ، فَتَحَ لِلزَّنَادِقَةِ بَابَ الْكُفْرِ وَالْإِلْحَادِ، فَدَخَلُوا مِنْهُ وَأَقْسَمُوا بِالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ: إِنَّهُ لَمِنْهُمْ، وَمَا هُوَ مِنْهُمْ، وَغَرَّهُ سَرَابُ الْفَنَاءِ، فَظَنَّ أَنَّهُ لُجَّةُ بَحْرِ الْمَعْرِفَةِ، وَغَايَةُ الْعَارِفِينَ، وَبَالَغَ فِي تَحْقِيقِهِ وَإِثْبَاتِهِ، فَقَادَهُ قَسْرًا إِلَى مَا تَرَى»[3].

تحذير السلف من القول بوحدة الوجود

✍ وفيما يتعلق بأبي إسماعيل الهروي فإن ابن خلدون ينسبه إلى الحلول العام وابن تيمية ينسبه إلى الحلول الخاص قال في مجموع الفتاوى: «وأما أبو إسماعيل الأنصاري صاحب «منازل السائرين» فليس في كلامه شيء من الحلول العام لكن في كلامه شيء من الحلول الخاص في حق العبد العارف الواصل إلى ما سماه هو: « مقام التوحيد » وقد باح منه بما لم يبح به أبو طالب لكن كنى عنه»[4]. وكلامهم في هذا المعنى كثير، والمقام لا يتسع للاستكثار منه، وهو يدور بين وحدة الشهود والوجود، بعضه يمكن حمله على الشهود، وبعضه لا يمكن، والمؤكد أن كثيرًا منهم كان يقول بالحلول ووحدة الوجود، يدل على ذلك إنكار بعضهم لهذا السبيل، كالحارث المحاسبي والطوسي في كتابه «اللمع»، والغزالي، وغيرهم[5].. فالذكر والإنكار يدل على وجود هذا المذهب وانتشاره بينهم[6].

■ وإذا كان ابن القيم يرى الدرجة الثالثة في المنازل تشير إلى فناء الشهود، ولأجل هذه الرؤية يبرئ الهروي من القول بالحلول، فإن ابن تيمية قد يوافقه على أنها كذلك، غير أنه يبين شيئًا جديرًا بالعناية، وهو أن فناء الشهود نفسه[7] قد يكون سببًا في الوقوع في الحلول الخاص، الشعوري، فيقول: «وفي هذا الفناء قد يقول: (أنا الحق أو

---

[1] المصباح المنير (ص٣٣٤). [و ج د] وَجَدْتُهُ.

[2] عقيدة الصوفية ووحدة الوجود الخفية (ص٣١) .

[3] منازل السائرين (١/ ١٦٨).

[4] (٥/ ٤٨٥).

[5] وممن قال بالاتحاد: عبد الكريم الجيلي، الذي ألف كتابًا أسماه «الإنسان الكامل» حاول أن يثبت فيه أن محمدًا هو أول تعيينات الذات الإلهية بعد أن أرادت أن تظهر من مرحلة الخفاء إلى مرحلة الوجود. شبهات التصوف للدكتور عمر عبد العزيز (ص٤٨).

[6] الإنسان الكامل في الفكر الصوفي لطف الله خوجة (ص١١٠).

[7] يرى بعض العلماء أن بين وحدة الوجود ووحدة الشهود فارقًا بعيدًا، وذلك أن وحدة الوجود هي الحلول والاتحاد وعدم التفرقة بين الله وبين غيره من الموجودات، بينما وحدة الشهود عند بعضهم هي بمعنى شدة مراقبة الله تعالى بحيث يعبده كأنه يراه. ومن هنا ظن هذا البعض أن وحدة الشهود لا غبار